

الفصل الثامن عشر

سليمان باشا الفرنساوي



شكل ١٨-١: سليمان باشا الفرنساوي مؤسس الجند النظامي المصري (ولد سنة ١٧٨٧ م وتوفي سنة ١٨٦٠ م).

تاريخه في أوروبا

ولد في ليون من أعمال فرنسا في أوائل أبريل سنة ١٧٨٧ وسمّي يوسف سيف، وكان أبوه متوسط الحال يتعاطى الصناعة، فلما بلغ يوسف أشده أراد والده أن يستعين به في أعماله، ولكن الغلام كان يشعر بأنه أرفع من ذلك المكان فضلا عن ميله الفطري إلى الخروج والجولان فلم يستطع المواظبة فشق ذلك على أبيه، فتوعده إذا لم يثابر على العمل بأن يُخلِّه في سلك الملاحة عقابا له، فلم يكن ذلك إلا موجبا لسروره فأدخله في مهنة البحرية سنة ١٧٩٩ وهو لم يتم السنة الثالثة عشرة من عمره، فأعجبه جوب البحار وركوب الأخطار في سفن كانت إلى ذلك العهد تسير بلا بخار حتى كانت حروب ترافلغار سنة ١٨٠٥ بين الأسطول الإنكليزي بقيادة الأدميرال نلسون الشهير والأساطيل المتحدة لدول فرنسا وإسبانيا تحت قيادة الأدميرال فلييوف وأميرالين أسبانيين وكان الفوز للإنكليز، لكن صاحب الترجمة أظهر على صغر سنه أعمالا تدل على استعداده للشؤون الحربية وكان المنتظر أن ينال في مقابل ذلك مكافأة تستحق الذكر فاتفق أنه تخاصم وأحد رؤسائه، وكان سيف عنيقا خشنا فجرّتهما المعاتبة إلى المضاربة، فبدأ الضابط فضرب سيف ضربة جرحته، فلم يستطع صبرا على ذلك فهَمَّ بالضابط وما زال يضره حتى قيل: كفى، فقبض عليه وحُوكم، فحُكم عليه بالإعدام وهو حكم عسكري لا مرد له.

ولكن العناية سخرت له رجلا من الأشراف اسمه الكونت بول دي سيفور، يقال: إن سيف كان قد أنقذه من الموت مرة فذكر له هذا الجميل فلما حكم عليه توسط في أمره فأنقذه وأرسله إلى الجيش الفرنسي الذي كان إذ ذاك في إيطاليا. ولما شبَّت الحرب بين فرنسا والنمسا كان سيف في جملة الأسرى عند النمساويين، وبقي مغتربا عامين حتى إذا كانت حملة نابليون الشهيرة على روسيا سنة ١٨٠٢ فكان سيف في جملة جندها وأظهر في أثناء وقائعها الهائلة بسالة أوجبت التفات نابليون الخصوصي حتى أراد أن يقلده نيشان اللجيون دونور فدعا إليه بهذا الشأن فأنس منه استخفافا فحنق عليه وحرمه من ذلك الشرف على أنه ما لبث أن رقي في الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونيل (أميرالاي) بعد رجوع تلك الحملة السيئة الحظ.

ثم كانت الوقائع المشهورة التي قضت على رجل فرنسا (نابليون) بالأسر والنفي ففضي على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية والانقطاع إلى التجارة التماسا للتعيش، ولكن أتى للجندي المحارب أن يساوم امرأة أو غلاما على مبيع سلعة فبيح قبل إتمام

المبايعة وخصوصاً صاحب الترجمة فقد كان قليل الصبر على مثل ذلك، فأبغضت نفسه التجارة ولم يفلح فيها. وسمع في أثناء ذلك أن شاه العجم في حاجة إلى ضباط حاذقين في تدريب الجند فكتب إلى صديقه الكونت دي سيفور المتقدم ذكره يلتمس كتاب توصية منه إلى الشاه، فنصح له الكونت أن يتوجه إلى محمد علي باشا بمصر.

تاريخه وأعماله في القطر المصري

فجاء مصر سنة ١٨١٩ ومعه كتاب توصية، فأحسن محمد علي باشا مقابله وكلفه بالبحث في جهات السودان عن معادن فحم الحجر، ولكنه لم يعثر على شيء منه فعاد إلى القاهرة واتفق وصوله إليها يوم الاحتفال بغلبة الجنود المصرية على الوهابية.

وكان محمد علي باشا لحسن نظره واهتمامه في تأييد دولته ما زال يفكر في سبيل يوسع به ملكه. وتوسيع الملك لا يكون لا بتعزيز الجند، والجند لا يقوم إلا بالنظام، وكان قد شاهد الجنود الفرنساوية بمصر وأعجبه نظامها وهو النظام الذي وضعه بونابرت وتمكن به من التغلب على معظم دول الأرض. وكانت الجنود المصرية إلى ذلك العهد لا تزال على النمط القديم لا يعرفون الخطوط ولا المربعات ولا ما شاكل كل ذلك من المنظمات العسكرية، بل كانوا عبارة عن فرق أو وجاقات وفيهم الأرناءوط والإنكشارية والمغاربة ونحوهم ولكل من هذه الفرق قائد، فإذا نزلوا ساحة الوغى ركب كلٌ جواده واستلَّ حسامه أو بندقيته أو رمحه وهجم على ما يترأى له.

ف رأى محمد علي باشا رحمه الله أن يجعل جنده نظامياً، ففاوض الكولونيل سيف بالأمر فرغبه فيه فعهد إليه تأليف الجند على هذه الصورة وتدريبه على الحركات العسكرية فشق ذلك على جماعة الأرناءوط وغيرهم؛ لأن ذلك النظام في اعتبارهم بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، فلم يقبلوا الإذعان ونفروا وتمردوا وتجمعوا حول القلعة يطلبون الرفق بهم، فرأى محمد علي أن يعاملهم بالحسنى، فأجاب ملتصمهم وأغضى عن تعليمهم، ولكنه رأى أن يدخل ذلك النظام بين جماعة الوطنيين لقربهم من الإذعان، فأنشأ مدرسة حربية في الخانكاه قرب المطرية تعلم فيها اللغات والحركات العسكرية، وجعل سراي مراد بك بالجيزة مدرسة للفرسان، وأنشأ مدرسة للطوبجية ثم أنشأ في القاهرة معامل لسكب المدافع واصطناع سائر حاجيات الجند، وعهد بذلك كله إلى الكولونيل سيف وكان قد أسلم وسمى نفسه سليمان، فصار يعرف باسم سليمان بك

الفرنساوي، وأحبه المصريون وأذعنوا له فنظم جندا نظاميا بلغ عدده ٢٥٠٠٠ جندي كانوا له عوناً في حروبه بالمورة والشام وغيرهما.

ولما كانت حروب المورة المشهورة منذ سنة ١٨٢١ أنفذ الباب العالي إلى محمد علي باشا أن يجند جيشاً لمحاربة المورة فأرسل عمارة بقيادة ابنه إبراهيم باشا سنة ١٨٢١ وكان سليمان بك من جملة أبطالها، وتمكن ببسالته من الاستيلاء على جزيرة ميسولونغي سنة ١٨٢٦ ثم عين حاكماً لبريوتزا فساس أمورها، ثم انقضت مشكلة المورة بمدخلة الدول الأوروبية فعادت الجنود المصرية، وعاد سليمان بك ومعه فتاة يونانية على مثل ما كان يفعل أبطال اليونان القدماء.

ولكن هذه الحرب أثقلت كاهل الجندية المصرية، فأعاد محمد علي اهتمامه في إصلاحها ثم كانت الحوادث التي قضت بتجريد الجنود المصرية على عبد الله باشا وإلي عكا سنة ١٧٢١ بقيادة المرحوم إبراهيم باشا، وفوض قيادة الطوبجية إلى سليمان بك فسارت الحملة إلى الشام في حرب عكا ثم فتحها عنوق فقبض إبراهيم باشا على واليها عبد الله باشا وأرسله إلى الإسكندرية وأوغل في الشام وسليمان بك ساعده الأيمن في كل المواقع الكبيرة، وكان قائداً لستة آلاف جندي فأنفذ الباب العالي جنداً كبيراً لقهر الجند المصري فوكل إبراهيم باشا مقابلة جانب من هذا الجند إلى سليمان بك، وسار هو لمقابلة الباقين فحارب سليمان فرقة كبيرة قرب حمص فتغلب عليها في بيلان ثم في الإسكندرونه ثم في قونية، وكانت قد تعززت بنجديات قوية. فأعجب إبراهيم باشا بشجاعة هذا الرجل ومهارته في الحركات العسكرية، ورفاهه إلى رتبة باشا. وكان في عزم المصريين البقاء على الزحف لو لم تتداخل الدول وتقرر الصلح فعادت الجنود المصرية إلى السكينة، ولكنها ما لبثت أن عادت إلى الحرب لهياج حدث في بيت المقدس، فساروا ومعهم سليمان باشا فأخمدوا الفتنة.

وبعد قليل أصدر محمد علي باشا أمره برجوع سليمان باشا إلى مصر ثم عادت الحرب في سوريا فعاد إليها إبراهيم باشا وما زال يحارب بسيف المصريين حتى اقتضت السياسة الأوروبية انسحاب الجنود المصرية من سوريا، فرجع سليمان باشا معها إلى مصر وتعين رئيساً عاماً للجيش المصري، وما زال فيها على الكلمة، مرعي الجانب حتى أراد إبراهيم باشا السفر إلى جبال البيروني للاستحمام فانتدب سليمان باشا لمرافقته فرافقه وساعده الحظ أن يرى وطنه رأي العين بعد أن غاب عنه أعواماً طويلاً. ولما شفي إبراهيم باشا من مرضه زار فرنسا ثم لندرا وصاحب الترجمة معه فسرتته تلك

الرحلة لأنه تمكن من تفقد الثكنات العسكرية في أكبر عواصم أوروبا، وملاحظة الحركات الحربية ثم عاد إلى باريس وإبراهيم باشا لا يزال في لندرا، وبرح باريس إلى البلجيك وهولندا ثم عاد إلى ليون مسقط رأسه فأقام فيها مدة بين أهله وذويه ثم رجع إلى الإسكندرية فمصر ورفع إلى محمد علي باشا تقريراً بما رآه ولاحظه في أثناء سفره، وعاد إلى الاهتمام في تدريب الجند وما زال عاملاً مجتهداً حتى توفي إبراهيم باشا، فصار الأمر إلى عباس باشا الأول ثم إلى سعيد باشا فتوفي صاحب الترجمة على عهده في ١١ مارس سنة ١٨٦٠.

صفاته وأخلاقه

كان ربعة ممتلئ الجسم، قوي العضل، شديد التعلق بالجنديّة، وكان عنيدا مع ميل إلى خشونة المعيشة العسكرية، ومما يروى عنه من هذا القبيل أن عباس باشا الأول رغب إليه مرة أن يخرج بتلامذة الحربية إلى النزهة ففعل، فلما كان وقت الغذاء أرسل إليه عباس باشا طعاماً شهياً متقناً فرفضه، وقال لحامله: «سحقاً لهذا الغذاء، ألا يعلم عباس باشا أننا جنود لا نأكل إلا مثل أكل الجنود» وأصر على إرجاع الطعام بالرغم عن تقدم نجل عباس باشا إليه في قبوله. وله نوادر كثيرة تدل على صلابته طباعه وخشونته، وقد يتوهم بعضهم أن الخشونة والصلابة لازمتان في قيادة الجند، ولكن اللين أولى بها، والجند يطيع رئيسه إذا خشن طاعة الخائف، وأما إذا لان فإنه يطيعه طاعة المحب وبينهما فرق واضح. أما سليمان باشا مهما قيل في أخلاقه فإنه كان ماهراً في قيادة الجند وتدريبه وكان طلباً للعلی فتمكن منه بجده واجتهاده.